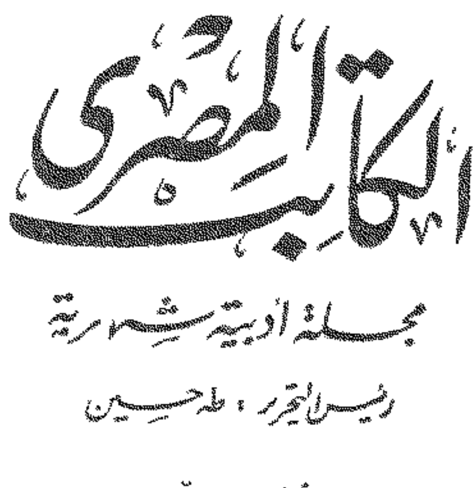
مجلد ٨ — عدد ٣٢ مايو ٤٨



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

السيمائية

المنطق اللغوى الجديد

مما يبعث على الحيرة والتأمل أننا نجد فى اللغة العربية مئات الكلمات الاغريقية التى اتخذت مكانة صميمة حتى لا نكاد نتبين أصلها الأجنبى . وظنى أن دولة تدمر ، دولة زينب أو الزباء ، هى الأصل لهذا التغلغل الاغريقى فى لغتنا ؛ لأنها كانت دولة عربية إغريقية .

ونحن نستعمل فى مصر كلمتين : إحداهما تلبس اللباس العربى الصميم وهى سيما أو سيماء ، حتى لنقول عليه سيما الوقار وكأننا ننطق كلاماً عربياً فصيحاً . والمعنى هنا علامة الوقار . ونستعمل كلمة أخرى تلبس اللباس الأجنبى الصريح فنقول السيمافور للنصب العالى الذى ينتهى بعلامة للقطرات على السكك الحديدية ، والمعنى هو حامل العلامة .

والمعاجم العربية تقول السيما هى العلامة ، وكذلك تقول المعاجم الاغريقية . فالأصل إغريقى لا شك فى ذلك .

وقد ظهر علم جديد فى أوربا يسمى السيمائية أى علم العلامات ، وهو علم الكلمات أى العلامات للمعانى من حيث دقة مدلولها المنطقى أو الاجتماعى أو من حيث تطور المعنى ، وما يعتور كل هذا من اضطراب المعنى أو سداده . وكان ميشيل بريال اللغوى الفرنسى أول من تنبه إلى هذا الموضوع وألف فيه قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، وهو الذى اشتق الاسم .

وأول ما نلتفت إليه فى هذا الموضوع ونسلم به أن لكل كلمة مناخاً نشأت وعاشت فيه ؛ لأن معناها كان مألوفاً فى مجتمع معين يحتاج إلى هذا المعنى ويطلبه فى وسائل عيشه وعاداته الاجتماعية . فاذا تغير هذا المجتمع فان معنى الكلمة يضطرب ؛ لأن الحاجات القديمة التى كان يطلبها المجتمع القديم من

هذه الكلمة لم يعد المجتمع الجديد يحس بها ؛ فتحدث من ذلك التباسات واضطرابات لغوية لا تؤدى إلى الفهم الصحيح . وهذا هو ما يحدث عند ما نقرأ كتاباً قديماً فى اللغة العربية مضى على تأليفه ألف سنة أو نحو ذلك . فاننا نجد المؤلف مثلا يستحسن نكتة أدبية لا نرى مغزاها ، لأننا بعد ألف سنة قد فقدنا الجوّ الأدبى الذى كان يحيط بهذه النكتة . أو نجد كلمات غيبية أو فلسفية يشق علينا فهمها . ومن هنا كانت الصعوبة فى قراءة ابن رشد أو الفارابى ؛ فان كلا منهما يعالج مشكلات كانت تتصل بمجتمعيهما . وقد زال هذا المجتمع فى أغلبه ؛ ففقدنا نحن أواصر الصلة بيننا وبين معانيه . بل إننا حين نقرأ ديوان شعر للبحترى أو أبى تمام نجد من معانى المديح مثلا ما لا يثير فى نفوسنا حماسة أو إعجاباً ؛ لأن المعانى القديمة قد زالت بزوال المجتمع القديم . فاختلفت القيم والأوزان للمديح والثناء باختلاف المجتمعَين . ولكن هذه الاشكالات يسيرة فى جنب ما نرث من كلمات نضطر إلى استعمالها لأننا لانجد غيرها ؛ مع أنها من حيث بيئتها الأولى كانت تعنى أشياء لم تعد قائمة فى مجتمعنا . وكل جيل مضطر إلى أن يستعمل الكلمات التى كان يستعملها الجيل السابق مع ما قد يكون بين الجيلين من اختلاف اجتماعى أو اقتصادى يحتاج إلى معان جديدة . ثم تسوء الحال أكثر وأكثر عند ما يضطر جيل يعيش مثلا فى بيئة صناعية متحركة بالات الانتاج إلى استعمال كلمات نشأت قبل ألف عام فى بيئة زراعية جامدة .

اعتبر الكلمات التى تعبر بها عن العلاقات بين المالكين الزراعيين وحقوقهم وواجباتهم من حيث البيع والشراء والايجار والحدود والحقوق الارتفاقية والعينية والاشتراك فى المحصول ونحو ذلك ، ثم انقل هذه الكلمات للتعبير عن العلاقات بين المالكين المساهمين فى شركة ؛ فانك واجد أن الحقوق والواجبات قد اختلفت ، وأن كثيراً من المعانى القديمة لم يعد يأتلف مع هذا النظام التساهمى . وكذلك الشأن عند ما ننتقل من مزرعة إلى مصنع عصرى ؛ فاننا كثيراً ما ننخدع بالكلمات ، فنأخذ تلك الكلمات التى ألفناها فى المزرعة عن الادخار والتوفير والاجتهاد ، ونحن نأمل الاستلاك بهذه الفضائل أو التوسع فيما نملك بزيادة فى المساحة أو زيادة فى ترقية الانتاج ، ثم ننقل هذه المعانى إلى المصنع ، وننقل مع هذه المعانى عواطف قد أحدثتها

لنا هذه الكلمات بالتربية السابقة ، ثم لا نجد ما يلائمها فى البيئة الصنعية الجديدة .

وكل كلمة تحمل معنى . وهذا المعنى هو بمثابة العادة الذهنية التى تلابسنا طوال حياتنا ما دام هذا المعنى قائماً . وعلى أنه قد يزول أحيانا المجتمع الذى أحدث هذا المعنى واستعمل كلمته ، ولكن العادة الذهنية تبقى وكأنها عاطفة لها قوة لتحريك الفرد أو المجتمع إما للخير وإما للشر ، بل تبقى الكلمة وتحيا حياة ضعيفة برواسب قديمة من معناها السابق .

فمنذ ١٩١٩ نهضت المرأة فى مصر وسفرت وعملت طالبة فى المدرسة أو الجامعة واشتغلت فى المصالح والمصانع . وهذه حال اجتماعية تناقض بلا شك المجتمع القديم الذى سبق ١٩١٩ . ولكن الكلمات الباقية من المجتمع القديم لا تزال حية ، وهى تحط المرأة وتنكر استقلالها وحريتها ومساواتها بالرجل . وهى لذلك توقعنا فى اضطرابات وارتباكات ذهنية خطيرة . ولست فى حاجة إلى ذكر هذه الكلمات لأنها كثيرة مستفيضة .

ومن هنا نفهم أن شيئاً كثيراً من صعوبات الفهم والتفاهم ليس ذهنيا وإنما هو لغوى . أى إن هذه الصعوبات لا تعود إلى ذهن ضعيف ينقصه الفهم ، وإنما تعود إلى كلمات سيئة قد خرجت من بيئتها القديمة ودخلت فى بيئة جديدة . وهذا هو ما نحس عند ما نعجز عن فهم الفارابى أو ابن رشد . وهذا هو ما نحس عند ماتحتد المناقشة بيننا بشأن المرأة وهل يحق لها أن تستحم على الشواطىء أم لا ؛ بل هذا هو ما يحدث عند ما نمارس حرية معينة فى الصحافة أو الخطابة أو العمل فى مجتمع جديد نص دستوره على هذه الحريات جميعاً ، ولكنه استبقى كلمات الاستبداد السابقة وما رافقها من عواطف فى قهر الشعب والتسلط عليه وضرورة إرغامه على الخضوع .

ومن هنا أيضاً نفهم أن الكلمات قد تزيد الذكاء أو تنقصه . أو بتعبير أصح نقول إنها قد تحدّ الذكاء أو تبلّده . وهى ، أى الكلمات ، قد تكون سبباً للجريمة أو سبباً للمرض .

هناك كلمات تثير العقل الراكد وتنبه الذكاء الخامد ، مثل كلمات المروءة ، الشرف ، المجد ، الاستقامة ، الحق ، العدل . فإن البليد الذى انحصرت

آفاقه يتنبه بهذه الكلمات وتتسع آفاقه بها . وهو ينتقل بها من شؤونه الحرفية المحدودة إلى شؤون إنسانية عالية . وهو يرتفع بها من ذاته الشخصية الأنانية إلى الذات الاجتماعية العامة . وهناك كلمات أخرى تبلد الذهن وتسفل به إلى درجة الحيوانية ؛ كما نجد فى كلمة شماتة ، أو كما نجد فى الكلمات الجنسية السفلى التى يتنادر بها العامة . فان معانى هذه الكلمات تحدث عواطف تلابسها ، ثم هذه العواطف تعين طرازاً سيئاً من السلوك الجنسى بين الزوج وزوجته خاصة وبين الرجل والمرأة عامة .

وهناك كلمات تبعث على الجريمة ؛ كما نجد فى الكلمات عرض ودم وثأر عند القرويين والبدو فى جرجا وقنا ؛ فان هذه الكلمات تثير فى الصبيان قبل الشبان خيال الجريمة ثم عاطفة الجريمة . ومما تجب ملاحظته أن هذه الكلمات الثلاث مع ما لكل منها من جو لغوى قديم لايمكن أن تترجم إلى اللغة الانجليزية . وقد يقال هنا إن هذه الكلمات تعبر عن معان قائمة فى نفوس القرويين والبدو فى جرجا وقنا ، وأن هذه الكلمات نتيجة ، سبب ، لهذه الكلمات . ولو أننا سلمنا بهذا القول لوجب أن نسلم بأن القرويين والبدو فى جرجا وقنا يختلفون بطبيعتهم وغرائزهم عن الانجليز أو عن سكان المنصورة أو طنطا . إنما الحقيقة أن هذه الجرائم هى نتيجة لهذه الكلمات الفاشية فى هاتين المديريتين . وهى كلمات تتذبذب بأنغام عاطفية مثيرة ، وهى تعين طرازاً من السلوك يلازم الحياة . بل هنالك كلمات تبعث على المرض . ونعنى المرض النفسى . فاننا نعبر مثلا عن سن النضج والايناع فى المرأة ، حين تشرع فى الارتفاع من الانثوية إلى الانسانية ، بسن اليأس . واليأس هنا كلمة تبعث على القلق والتقلقل ، وهى جديرة باحداث المرض . كما أن كلمات المزاحمة الاقتصادية : هذا ثرى ، هذا مالك ، هذا وجيه ، وهذا فقير ، مسكين ، معدم سيئ الحظ - كل هذه الكلمات تبعث عواطف كريهة من الحسد والبغض ونحوهما مما يحدث أمراضاً نفسية تبدأ بالهم والقلق وقد تنتهى بالجنون.

لكن أعظم ما يحدث لنا اضطراب الفهم وارتباك المعانى أن الكلمات التى نستعملها إما أن تكون موضوعية لها حقيقة ووجود خارج أنفسنا ، وإما أن تكون ذاتية ليس لها حقيقة أو وجود إلا فى أنفسنا . ونحن نتفق بسهولة على

الكلمات الموضوعية ؛ إذ ليس منا من يختلف على المعانى من هذه الكلمات التالية : حيوان ، نبات ، إنسان ، أرض ، هواء الخ .

ولكننا نختلف كثيراً على المعانى التى تؤديها الكلمات الذاتية ، مثل جميل ، قبيح ، سافل ، عظيم ، عالم ، مثقف ، فاضل الخ .

واللغة ، وكذلك الفهم ، يرقيان بالانتقال من المعنى الذاتى المضطرب إلى المعنى الموضوعى الدقيق ، كما يحدث مثلا عند ما أقول : هذا الرجل ثرى ، فان الثراء هنا كلمة ذاتية نختلف كلنا على معناها . فان الفلاح الأجير يعتقد أن الثراء هو امتلاك بقرة وحمار ونحو عشرة جنيهات ناجزة . والعامل الأجير فى مصنع يعتقد أن الثراء هو امتلاك أتوموبيل . ولذلك كانت كلمة ثرى هنا كلمة مضطربة ، كلمة ذاتية . ولكنى أستطيع أن أنقل هذه الذاتية إلى الموضوعية بأن أقول : هذا الرجل يملك عشرة آلاف جنيه بسعر القطع ثلاثة دولارات لكل جنيه .

ومن هنا نفهم أن الأرقام تنقلنا من الذاتية إلى الموضوعية . وهى لذلك لغة العلم أى اللغة الدقيقة التى يحتاج إليها العلم . ولكل منا خارطة نفسية للعالم الذى يرتسم لنا بصورة ذاتية تلابسها عواطف مختلفة . وإنما يفضل أحدنا الآخر بمقدار ما ينقل هذه الصورة من الذاتية إلى الموضوعية ، أى من العاطفة إلى الوجدان والتعقل .

كذلك اللغات تتفاضل بمقدار اعتمادها على كلمات موضوعية دقيقة أو كلمات ذاتية مضطربة . ولذلك تجد رجلا مثل واطسون داعية السيكلوجية السلوكية يقاطع هذه الكلمات : عقل ، نفس ، غريزة ، وجدان ، كامنة ، لأنه يجد أنها كلمات ذاتية . وهو يحاول أن ينتقل منها إلى كلمات موضوعية تؤدى بالأرقام على قدر الامكان .

قد شرحنا إلى هنا مرمى هذا العلم الجديد : السيمائية . وهو أن نقف على أخطاء التفكير التى تبعثها أخطاء التعبير باستعمال كلمات فقدت مناخها الاجتماعى الذى نشأت فيه ، أو باستعمال كلمات سيئة تبعث على الجريمة ، أو باستعمال كلمات ذاتية تضطرب بها المعانى .

الكلمات علامات . والسيمافور هو حامل العلامة الذى يوجه القطرات بالاشارات أو الايماءات .

والسيمائية التطبيقية هي التى تدلنا على اختيار العلامات ، الكلمات ، التى نرشد بها ونوجه ، بحيث تزيد الذكاء حدة ، وترفع العاطفة ، وتعين الأهداف. ولا نكون منطقيين فقط بل سيكلوجيين أيضاً نحاول أن نختار من الكلمات ما يجيك الأفكار كما يجيك القفاز اليد ، فلا تكون الكلمة سرجرجة لها حواش وأذناب من المعانى .

وهذا بالطبع ليس مجهود الفرد فقط سواء أكان من رجال الأدب أم من رجال العلم ، ولكنه مجهود القرون . ونحن بهذا المجهود ننتقل من البلاغة القروية التى تعلمناها ،إلى البلاغة السيمائية التى يجب أن ندرسها ونمارسها فى مجتمع القرن العشرين .

قبل نحو ستين سنة أخرج ماكس مولر اللغوى العظيم كتاباً صغيراً قال فيه : إننا لا نستطيع أن نفكر بلا كلمات أو على الأقل إيماءات كما يفعل الأخرس . والكلمة إيماءة أو علامة . وقد أثار هذا الكتاب مناقشات وقتئذ كان مدارها على التفكير هل هو ثمرة الكلمات أم الكلمات ثمرة التفكير. وقد بقيت هذه المشكلة بعيدة عن الحل الحاسم إلى أن جاء واطسون داعية المذهب السلوكى فى السيكلوجية . وهو مذهب ينتهى إلى أن التفكير إنما هو كلمات غير منطوقة أو حديث صامت . أى إن التفكير لايجرى إلا مع حركات صائتة أو صامتة فى عضلات الحنجرة . وإننا بدون هذه الحركات لانستطيع أن نفكر.

وهنا يستطيع القارئ أن يتأمل موقفه العاطفى من السرور أو الخوف ، وأن يسأل : هل نحن نسرّ لأننا نضحك أى نحرك عضلات الصدر أم نحن نضحك لأننا نسر؟ وهل نحن نفرّ لأننا نخاف أو نخاف لأننا نفرّ ؟ وهل كنا نخاف لو أننا لم نفر؟ وأخيراً هل نحن نفكر لأننا نتكلم بصوت مجهور أو مهموس أم العكس هو الذى يحدث أى إننا نتكلم لأننا نفكر؟

الظن الأكبر ، وما زلنا فى مقام الظن ، أن جميع عواطفنا تحتاج إلى حركات فى أعضاء الجسم الداخلية أو الخارجية . ولما كان كل تفكير مهما يرى فى ظاهره يحتاج إلى عاطفة تبعث عليه وتحرك له بعض الأعضاء ، فاننا لانستطيع التفكير بدون الكلمات . وإذن يجب أن نستنتج أن ما نحسبه تفكيراً صامتاً إنما هو فى صميمه كلمات مهموسة لا نسمعها . ومما يدل على هذا أننا عند ما

نفكر فى موضوع يثير العاطفة نجد أننا نتكلم وقد يرتفع صوتنا حتى نسمعه .

وإذن يجب أيضاً أن ننتهى إلى القول بأن التفكير السديد يحتاج إلى كلمات سديدة ، كلمات تحبك المعنى كما يحبك القفاز اليد لا تضيق ولا تتسع ولا تطول ولا تقصر . وإذن كل إهمال للكلمات إنما هو إهمال للتفكير . وكل تجديد فى التفكير يحتاج إلى تجديد فى الكلمات . وأيضاً كل تجميد فى اللغة هو تجميد للتفكير .

الحركة السيمائية هى ثمرة الروح العلمى . فان البيئة الصناعية الجديدة احتاجت إلى العلوم واستغلتها كى تزيد إنتاجها ، وأخذ الروح العلمى يطغى على التفكير البشرى فى مراتبه العالية ويعين قواعد ويرتب أصولا للدقة فى البحث . ولما وجد العلميون أن التراث اللغوى يحفل بكلمات مرجرجة مسيبة غير مقيدة بحدود محبوكة ، عمدوا إلى اللغتين الاغريقية واللاتينية لسك كلمات جديدة تؤدى المعانى العلمية الدقيقة .

وهنا يثب القارئ سائلا : ألست الآن تعترف بأنهم ، أى العلميين ، قد فكروا ثم اختاروا وسكوا الكلمات التى تؤدى المعانى ؟ ألا يثبت هذا القول أن المعنى قد سبق الكلمة ؟

ولكن الاجابة على هذا السؤال هى سؤال آخر هو : ما الذى أرشدهم إلى المعنى الجديد سوى الكلمات القديمة التى فكروا فيها ثم وجدوها غير وافية بتفكيرهم ؟

وهذا الروح العلمى هو الذى يبعث المفكرين على بحث الكلمات من حيث قيمها وأوزانها المنطقية والاجتماعية والسيكلوجية حتى نستطيع استخدامها فى التفكير السليم وفى التوجيه الاجتماعى والمعالجة السيكلوجية .

وعبارة « التوجيه الاجتماعى » تحملنا على ذكر الدعاية والشأن العظيم الذى كان لها فى جميع الأمم المتحاربة فى الحرب الكبرى الماضية . فان الدعاية هى فى النهاية استخدام القوة الاغرائية التى للكلمات . وهنا مكان جديد للبلاغة السيمائية ، وإن لم يكن أسمى أمكنتها ، ستعنى به الحكومات .

ويجب أن يعرف القارئ أولا أننا بهذا الذى قلناه عن السيمائية إنما قد خدشنا السطح فقط ولم نتعمق الموضوع . والموضوع فى صميمه سيكلوجى غايته

الفهم السليم . أو قل الفهم الموضوعى . ويجب أن يعرف القارئ ثانياً أن لكل لغة سيمائيتها ، كما أن لكل لغة نحوها الذى يتميز من النحو فى أية لغة أخرى . ذلك أن كل لغة قد نشأت وشبت وترعرعت وأحياناً شاخت فى مناخ معين لم تعش فيه أية لغة أخرى . وهذا المناخ طبيعى واجتماعى . وهو بهذه المثابة قد أحدث كلمات وعين أسلوباً للكلام هو فى النهاية أسلوب للتفكير . ثم هذا الأسلوب فى التفكير قد عين طرازا للأخلاق والعيش ، إما للخير وإما للشر .

وليس من الشطط أن نقول إن الصينيين مثلا رجعيون لأنهم يتكلمون اللغة الصينية ، كلمات ورثوها منذ ألفى سنة تحمل معانى رجعية وتعين سلوكا رجعياً فى الحياة . كما أن الفرنسيين مثلا عصريون لأنهم يتكلمون اللغة الفرنسية ، كلمات جددوها تحمل معانى عصرية وتعين سلوكا عصريا فى الحياة وقس على هذا لغتنا ولغات الأمم الأخرى .

سلامة موسى